

"ملك النحاة" ومسائله العشر
المتعِبات إلى يوم الحشر

د. أحمد علي سعد الله
أكاديمي مصري

العلم ثلاثة أشبار، إذا بلغ الطالب الشبر الأول شمخ بأنفه، وإذا بلغ الشبر الثاني تواضع، وإذا بلغ الشبر الثالث علم أنه جاهل.

رأيت هذه العبارة متأصلة في الأسفار، فتارة تنقل عن الخليل، وتارة عن الشعبي، وتارة عن الشافعي، وتارة عن غيرهم، وتواترها يشي بأنها قاعدة مطردة في علوم الآدميين، فهل لها شواذ؟

لعل صاحبنا اليوم من شواذ هذه القاعدة، فقد كان من حوله يشهدون له بالعلم والفضل، وهو مع ذلك لم يعرف بتواضعه بقدر ما كان يعرف بشموخ أنفه، حتى سمى نفسه ملك النحاة، وكان يسخط على من يخاطبه بغير ذلك.

إنه الحسن بن صافي بن عبد الله بن نزار بن أبي الحسن، أبو نزار، الملقب بملك النحاة.

قال القفطي: كان والده مولى حسين الأرموي التاجر، وولد هو بشارع الرقيق ببغداد، ثم انتقل إلى الجانب الشرقي، وتفقه للشافعي على أحمد الأشنهي، وقرأ الأصول على ابن برهان، والخلاف على أسعد الميهني، والنحو على الفصيحي حتى برع فيه.

وتصدر صاحبنا للتدريس؛ فدرَّس النحو في أحد مساجد بغداد، وذاع صيته فيها، واتضح فضله وعلمه بين طلاب العلم، ثم ارتحل إلى مدينة واسط، فأخذ عنه جماعة من أهلها، وأثنوا على فضله ومعرفته، ثم طاف بعد ذلك في مدن شيراز وكرمان وغزنة زمنًا طويلاً، ورحل إلى أصفهان سنة ٥٤١هـ، ثم اتجه إلى الشام، فأقام بدمشق قليلاً ثم غادرها إلى الموصل بعد أن اجتمع عليه بعض شعرائها فهجوه، قال البلطي: كان ملك النحاة قدم إلى الشام، فهجاه ثلاثة من الشعراء: ابن منير، والقيسراني، والشريف الواسطي، واستخف به ابن الصوفي ولم يوفه قدر مدحه، فعاد إلى الموصل ومدح جماعة من رؤسائها وقضاتها، فلما نبت به الموصل، قيل له: لو رجعت إلى الشام، فقال: لا أرجع إلى الشام إلا أن يموت ابن الصوفي، وابن منير، والقيسراني، والشريف الواسطي، فقتل الشريف الواسطي، ومات ابن منير والقيسراني في مدة سنة، ومات الصوفي بعدهم بأشهر[١].

(١) معجم الأدباء: ١/ ٣٣٩.

تهيأت الأجواء لصاحبنا كما كان يريد، فعاد أبو نزار إلى الشام، وأقام بدمشق في رعاية نور الدين محمود بن زنكي، واستوطنها إلى أن مات ودفن بمقبرة باب الصغير.

قال العماد: أقام ملك النحاة بالشام في رعاية نور الدين محمود بن زنكي، وكان مطبوعًا متناسب الأحوال والأفعال، مر الشكيمة، حلو الشيمة، يضم يده على المائة والمائتين ويمشي وهو منها صفر اليدين، مولعًا باستعمال الحلاوات السكرية، وإهدائها إلى جيرانه وإخوانه(٢).

ذكر صاحب معجم الأدباء أن صاحبنا كان لا يَذكر اسم أبيه إلا بكنيته، لئلا يعرف أنه مولى(٣).

كما ذكر ياقوت الحموي، ونقل عنه السيوطي أن صاحبنا كان صحيح الاعتقاد، كريم النفس، مطبوعًا، متناسب الأحوال، يحكم على أهل التمييز بحكم ملكه، فيقبل ولا يستثقل، فيقول: هل سيبويه إلا من رعيتي وحاشيتي؟! ولو عاش ابن جني لم يسعه إلا حمل غاشيتي.

ومن ظريف ما يحكى عنه أنه كان يستخف بالعلماء؛ فكان إذا ذكر واحد منهم، قال: كلب من الكلاب، فقال له رجل: أنت إذًا لست ملك النحاة، بل ملك الكلاب! فاستشاط غضبًا، وقال: أخرجوا عني هذا الفضولي(٤).

ومن ظريف ما يحكى عنه أيضًا: أن نور الدين محمود خلع عليه خلعة سنية، ونزل ليمضي إلى منزله، فرأى حلقة عظيمة فمال إليها لينظر ما هي، فوجد رجلاً قد علَّم تيسًا له استخراجَ الخبايا وتعريفه ما يقول له من غير إشارة، فلما وقف عليه ملك النحاة، قال الرجل لذلك التيس: في حلقتي رجل عظيم القدر، شائع الذكر، ملك في زي سوقة، أكرم الناس، وأجمل الناس، فأرني إياه، فشق ذلك التيس الحلقة، وخرج حتى وضع يده على ملك النحاة، فلم يتمالك ملك النحاة أن خلع تلك الخلعة، ووهبها لصاحب التيس، فبلغ ذلك نور الدين فعاتبه، وقال: استخففت بخلعتنا، فقال يا مولانا: عذري في ذلك واضح، لأن في هذه المدينة زيادة على مائة ألف تيس، ما فيهم من عرف قدري إلا هذا التيس، فجازيته على ذلك، فضحك منه نور الدين وسكت(٥).

بين صاحبنا وابن الشجري:

عُرف صاحبنا -كما تقدم- بشموخ أنفه، واعتزازه برأيه، وجرأته على السلف من النحاة، ورد آرائهم، وكان ابن الشجري صاحب الأمالي معاصرًا له، ولم يرض ابن الشجري بمذهب صاحبنا، وتخطئته لأصحاب الفصاحة، ورده لبعض آراء النحاة، ورد ابنُ الشجري في أماليه على صاحبنا، ووسمه بالجهل فقال: لله وأمّا «سوى» فإنّ العرب استعملتها استثناء، وهي في ذلك منصوبة على الظرف، بدلالة أنّ النصب يظهر فيها إذا مدّت، فإذا قلت: أتاني القوم سواك، فكأنك قلت: أتاني القوم مكانك، وكذلك: قد أخذت سواك رجلا، أي مكانك.

واستدل الأخفش على أنها ظرف بوصلهم الاسم الناقص بها، في نحو: أتاني الذي سواك، والكوفيون يرون استعمالها بمعنى غير.

وأقول: إدخال الجارّ عليها في قول الأعشى:

وَمَا قَصَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا لِسِوَائِكَا

يخرجها من الظرفيّة، وإنما استجازت العرب ذلك فيها تشبيهًا لها بـ «غير»، من حيث استعملوها استثناءً، وعلى تشبيهها بـ «غير» قال أبو الطيب:

أَرْضٌ لهَا شَرَفٌ سِوَاهَا مِثْلهَا
لَوْ كَانَ مِثْلكَ في سِوَاهَا يُوجَدُ

(٢) معجم الأدباء: ياقوت الحموي: ١/ ٣٣٩.
(٣) نفسه: ١/ ٣٣٩.
(٤) بغية الوعاة: السيوطي: ١/ ٥٠٥.
(٥) نفسه: ٣٤٠.

رفع «سوى» الأولى بالابتداء، وخفض الثانية بـــ(في)، فأخرجهما من الظرفيّة، فمن خطَّأه فقد خطَّأ الأعشى في قوله: «لسوائكا»، ومن خطّأ الأعشى في لغته التي جُبل عليها، وشعره يستشهد به في كتاب الله تعالى، فقد شهد على نفسه بأنه مدخول العقل، ضارب في غمرة الجهل.

وليس لهذا المتطاول إلى ما يقصر عنه ذرعه شيء يتعلّق به في تخطئة العرب إلا قول الشاعر:

حَرَاجِيجُ مَا تَنْفَكُّ إلاَّ مَنَاخَةً
عَلَى الخَسْفِ أَوْ نَرْمِي بِهَا بَلَدًا قَفْرَا

فكلّ فاقرة ينزلها بالعربيّة يزفّ أمامها هذا البيت، معارضا به أشعار الفحول من العرب العاربة، وليس دخول «إلاّ» في هذا البيت خطأً كما توهّم، لأن بعض النحويّين قدّر في «تنفكّ» التّمام، ونصب «مناخة» على الحال، فتنفكّ هاهنا مثل منفكّين، فى قول الله عز وجل: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ (البيّنة: ١). فالمعنى: ما تنفصل عن جهد ومشقّة إلاّ في حال إناختها على الخسف، ورمي البلد القفر بها، أي تنتقل من شدّة إلى شدّة.

ومن العجب أن هذا الجاهل يقدم على تخطئة سلف النحويّين وخلفهم، وتخطئة الشعراء الجاهليّين والمخضرمين والإسلاميّين، فيعترض على أقوال هؤلاء وأشعار هؤلاء بكلام ليس له محصول، ولا يؤثر عنه أنه قرأ مصنَّفًا في النحو، إلاّ مقدّمة من تأليف عبد القاهر الجرجاني، قيل: إنها لا تبلغ أن تكون في عشر أوراق، وقيل: إنه لا يملك من كتب النحو واللغة ما مقداره عشر أوراق، وهو مع ذلك يردّ بقحته على الخليل وسيبويه، إنها لوصمة اتّسم بها زماننا هذا، لا يبيد عارها، ولا ينقضي شنارها، ... ولولا إيجاب حقّ من أوجبت حقّه، والتزمت وفاقه، واحترمت خطابه، لصنت خطّي ولفظي عن مجاورة خطّه ولفظه»[٦].

صاحبنا ومسائله العشر:

صنَّف صاحبنا كتبًا، منها: الحاوي في النحو، والعمدة فيه، والمقتصد في التصريف، والتذكرة السفرية، والحاكم في الفقه، والمقامات، وديوان شعره، وغير ذلك، وله عشر مسائل استشكلها في العربية، سماها المسائل العشر المتعبات إلى الحشر[٧].

وقد جمع السيوطي في الأشباه والنظائر هذه المسائل العشر، ورأي صاحبنا فيها، قال السيوطي: «قال السخاوي في سفر السعادة: هذه عشر مسائل سماها أبو نزار الملقب بملك النحاة: المسائل العشر المتعبات إلى الحشر، وتحدى بها»[٨].

ولقد نقل السيوطي هذه المسائل عن السخاوي كما هو ظاهر من نصه، وإنَّ القارئ لهذه المسائل، وطريقة عرض صاحبها لها ليدرك من الوهلة الأولى أن صاحبنا كان ينظر إلى المسألة اللغوية من مناظير شتى، وعلوم عدة تشهد له بقدرة رائعة في الحجاج اللغوي.

---

(٦) أمالي ابن الشجري - تحقيق: محمود الطناحي - مكتبة الخانجي - ط ١: ٢/ ٣٧٣.
(٧) ينظر بغية الوعاة: ١ / ٥٠٥.
(٨) الأشباه والنظائر: السيوطي – تحقيق: عبدالعال سالم مكرم – مؤسسة الرسالة – ط١: ٦ / ٦٠.

لم يخل ذكر مجالس صاحبنا من طرافة وظرف، أستطيع أن أسميه ظرف شموخ الأنف، أو ظرف الـــ(أنا)؛ ذلك الظرف الذي ظل مقرونًا بذكره حتى بعد موته؛ فقد ورد أنه رُئِيَ في المنام، فقيل له: ماذا فعل الله بك؟ قال: أنشدته قصيدة ما في الجنة مثلها، وهي:

يَا هَذِهِ ٱقْصِرِي عَنِ الْعَذْلِ
فَلَسْتُ في الحلِّ ويك مِنْ قبل
يَا رَبِّ هَا قَدْ ٱتَيْتُ مُعْترفًا
بِمَــا جَنَتْهُ يَــدَايَ مِنْ زَلَلِ
مَلآنَ كَفٍّ بِكُــلِّ مَأثَمَــةٍ
صِفْرَ يَدٍ مِنْ محَاسِنِ الْعَمَلِ
فَكَيْفَ ٱخْشَى نَارًا مُسَعَّرَةً
وَأَنْتَ يَا رَبُّ في الْقِيَامَةِ لِي!

قال: فوالله منذ فرغت من إنشادها ما سمعت حسيس النار[٩].

فتدبر الرواية، ونص الرائي على قول صاحبنا: «ما في الجنة مثلها» يشعرك بما نستطيع تسميته بطرافة الاعتداد بالذات، الذي كان ملازمًا لصاحبنا في حياته، حتى حمله على تلقيب نفسه بملك النحاة، كما حمله على الحرص على سماع هذا اللقب علَمًا عليه من معاصريه.

مات صاحبنا بدمشق يوم الثلاثاء تاسع شوال سنة ثمان وستين وخمسمائة، ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة[١٠].

رحم الله ملك النحاة، وبارك علمه، ونفع المسلمين بمسائله التي بقيت شاهدة لنا على سعة علمه واطلاعه، وجعلها الله في سجل حسنه جالبة لغفران الله ورحمته!



حروف عربية - تصميم: Telpo

(٩) يُنظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: الفيروزابادي – تحقيق: محمد المصري – جمعية إحياء التراث الإسلامي بالكويت – ط١: ١/ ١٦، ويُنظر أيضًا: بغية الوعاة: ١/ ٥٠٥.
(١٠) بغية الوعاة: ١/ ٥٠٥.